خصائص فن العمارة في العصر الاشوري

م. م. هشام شاكر حامد

الجامعة المستنصرية \ كلية التربية الأساسية – قسم التاريخ، بغداد \ العراق

Characteristics of Architecture in the Assyrian era

Assist. Lect. Husham Shaker Hamid

Mustansiriyah University/ College of Basic Education- Department of History, Baghdad / Iraq

hishamshaker10@gmail.com

المستخلص

تُعد العمارة الآشورية واحدة من أبرز الابداعات البنائية في تاريخ حضارات الشرق الادنى القديم، حيث تميزت بتصاميمها الضخمة والدقيقة التي أظهرت هيبة ومكانة الدولة الآشورية، وكانت العمارة الآشورية قد تأثرت بمجموعة من العوامل الجغرافية، السياسية، الاجتماعية، الدينية، وبذلك فهي تعكس القوة العسكرية والدينية للآشوريين. وأن الأساس الذي يعتمد عليه البناء الآشوري هو المواد المتاحة محليًا مثل اللبن، الطوب، الحجر الجيري، وقد جاءوا بأساليب وافكار مبتكرة في استخدام هذه المواد لتشييد قصورهم الملكية، المعابد، الأسوار الدفاعية، فضلاً عن الأسواق. يستعرض هذا البحث خصائص فن العمارة الآشورية عبر تقصي العوامل المؤثرة في تصميم المباني وأنواعها الرئيسية، المواد الداخلة في البناء، ومدى تأثير العمارة الآشورية على الحضارات المجاورة لها، مثل الفرس، مصر، والهند. كما يتناول البحث تطور العمارة الآشورية عبر العصور، بدءاً من عهد الملك آشور ناصر بال وصولاً إلى عهد الملك سنحاريب. تتضح أهمية فن العمارة الآشورية في تأثيرها الكبير على فنون العمارة في الحضارات الأخرى، حيث اكتسبت الحضارة المصرية، الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الرومانية، من الأساليب العمارة الآشورية، خصوصاً في مجالات بناء المعابد، التحصينات، الزخارف. وبذلك يُعد فن العمارة الآشوري شاهدًا على تطور حضارة اصيلة، كانت تُساير التقنيات الحديثة للبناء لمجتمعها في حينها، ويظل تأثيرها حاضراً في العمارة القديمة حتى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: فن العمارة، العمارة الآشورية، الآشوريون.

Abstract

Assyrian architecture is one of the most prominent architectural innovations in the history of ancient Near Eastern civilizations. It was distinguished by its massive and precise designs, which demonstrated the prestige and status of the Assyrian state. Assyrian architecture was influenced by a combination of geographical, political, social, and religious factors, thus reflecting the military and religious power of the Assyrians. The foundation upon which Assyrian construction relies is locally available materials such as mud brick, adobe, and limestone. They developed innovative methods and ideas for using these materials to construct their royal palaces, temples, defensive walls, and markets.

This research explores the characteristics of Assyrian architecture by examining the factors influencing building design and its main types, the materials used in construction, and the extent of Assyrian architecture's influence on neighboring civilizations, such as Persia, Egypt, and India. The research also examines the development of Assyrian architecture throughout the ages, beginning with the reign of King Ashurnasirpal and continuing through the reign of King Sennacherib. The importance of Assyrian architecture is evident in its significant influence on the architecture of other civilizations. The Egyptian civilization, the Persian Empire, and the Roman Empire all adopted Assyrian architectural styles, particularly in the areas of temple construction, fortifications, and decoration. Thus, Assyrian architecture is a testament to the development of an authentic civilization that kept pace with the modern construction techniques of its time. Its influence remains present in ancient architecture to this day.

Keywords: Architecture, Assyrian Architecture, The Assyrians.

المقدمة

فن العمارة واحد من المظاهر الحضارية الإنسانية التي تُبين مدى تطور المجتمعات وثقافتها، وتبرز مَبْلَغ إبداعها في توظيف الموارد المتاحة والتقنيات، وفي هذا الصدد، جاء فن العمارة الآشوري ليشكل نقلة نوعية في تاريخ الفنون القديمة، حيث تميز بالضخامة والإبهار، معبراً بذلك عن قوة الآشوريين. تأسس الكيان السياسي للآشوريين في شمال بلاد الرافدين، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، ووصل هذا الكيان إلى اعلى مراحل تطوره بين القرنين التاسع والسابع قبل الميلاد، حيث نشأت إمبراطورية تمتد على نطاق واسع، وتشمل أقاليم متباعدة من مناطق الشرق الأدنى القديم، عُرف الآشوريون بقوتهم العسكرية، وإدارتهم المنظمة والدقيقة، كما أبدعوا في العمارة والفنون المختلفة، حيث خلفوا ورائهم إرثاً معمارياً مذهلاً تتجلى في قصورهم الضخمة، ومعابدهم الفخمة، ومدنهم المحصنة، والمزخرفة بنقوش غائرة، فضلاً عن التماثيل التي تَظهر انتصارات ملوكهم وآلهتهم.

يسعى هذا البحث إلى دراسة خصائص فن العمارة عند الآشوريين، من خلال تحليل عناصر العمارة، والتقنيات المستخدمة، والغرض الكامن وراء تصميم المباني الآشورية، مع إظهار التأثيرات الحضارية التي كونت هذا الفن النوعي، كما سيركز على دور هذه العمارة في تعزيز هوية الآشوريين السياسية والدينية، وكيف تم توظيفها كأداة لاستعراض السلطة. من خلال ما تقدم، سيتم تتبع العمارة الاشورية عبر العصور للكشف عن الاساليب الهندسية والزخرفية التي جعلتها ضمن أبرز منجزات الحضارات القديمة، مما يساعد في فهم أعمق للإرث الحضاري لبلاد الرافدين، وعمق تأثيره على الفنون المعمارية اللاحقة.

بدءًا.. العمارة هي بيان الفراغ بغرض توليد تجربة فراغية بعينها لدى المشارك، بالتناسب مع تجارب سابقة وأخرى مرتقبة. الإنسان بوصفه مخلوقاً يتقدم في قابليته الاستيعاب الفراغ من المرحلة الجنينية المجردة من مفهوم الفراغ إلى الاستكشاف المحدود للمحيط عند حديث الولادة، فالاستكشاف عند الطفل الزاحف على أربع في أغلبه ثنائي الأبعاد، وصولاً إلى ما تتطلبه مهارات الرياضي وفنون الراقص من قفزة جسدية في صميم الفراغ هنالك ما يناظر ازدياد عمق الإدراك ذهنيا وهو ما يقوم على ازدياد الارتباط الذهني

بأنظمة أكبر وأكبر وهذا يعني، بالتعبير المعماري، التطور من الأرض وما فيها من مواد إلى عناصر الكون الأقل حسية ويحقق الإنسان ارتواءه الجمالي عن طريق الشعور بهذا الارتباط مع نظام أعظم منه، ويزداد هذا الارتواء عمقاً كلما ازداد النظام الخارجي كونية وعموما ولهذا فإن التعبير الواعي عن الفراغ ضرورة لأسمى أشكال التعبير في العمارة (بيكن، 2012، 15).

تمثّل الممارسة المعماريّة، أحد الأنشطة المعروفة والمحبّبة والقديمة التي مارسها الإنسان إذ لطالما عدّت مداخلة الإنسان في تنظيم مأواه الأوّل بمثابة افتتاح لذلك النشاط الإبداعي، الذي قيِّم بكونه فعلاً معماريّاً مميّزاً، ذلك الفعل الذي أحاطه الإنسان المبدع بكثير من العناية والاهتمام، واجداً فيه قيمة جماليّة تثري بيئته المبنية المحيطة، وباعثا لتغييرات مستمرّة لتلك البيئة في سيرورتها من حالة راهنة إلى أخرى متقدّمة تفيض بمنافع عديدة ومتنوّعة، لكن هذا الفعل البنائي المألوف، تبدى لكثر عبر مراحل زمنيّة عديدة فعلاً غامضاً وملتبساً.. وحتى نخبويّاً، لا يجرؤ على إدراكه إلا أولئك الذين وضعوا أنفسهم وفعلهم في أبراج عاجيّة مرتفعة، محيطين نشاطهم بأجواء مليئة بالالتباس والمواربة، المتّسمة دوماً بالتعالي كما ساهمت قلّة الكتابات المعماريّة ونصوصها إلى إحداث نوع من قطيعة إيبستيمولوجيّة بين فعل المعمار ومستغل نتاج عمارته، وأدى رواج تلك القطيعة وانتشارها في الخطاب، إلى حصر الاهتمام بذلك الفعل، الذي عدّ نشاطه بمثابة حائضة لفنون عديدة، سوف تخرج من معطفه لتشكّل أجناس فنيّة عديدة قائمة بذاتها (السلطاني، 2013، 7-8).

اولاً: العوامل المؤثرة في الفن العماري الآشوري

أ. العوامل الجغرافية

رغم أن الإنسان يشكل العامل الحاسم في بناء الحضارة، فإن من الصعب اهمال دور البيئة الطبيعية وأهميتها في التأثير عليه وعلى حضارته، وبالنتيجة يعتبر بناء الحضارة حصيلة تفاعل مشترك بين الإنسان وبيئته ومن المعلوم تعاظم تأثير البيئة الطبيعية بعواملها الجغرافية المختلفة كمقرر لسير الحضارة واتجاهها مع بداية هذه المسيرة، لذلك كانت آثار البيئة الطبيعية أكثر وضوحاً وقوة في العصور القديمة (رشيد، 2004، 15).

تعتبر بلاد الرافدين، التي هي مهد الحضارات القديمة، من أكثر الأماكن تنوعًا من حيث الموارد الطبيعية فكانت المنطقة غنية بالموارد المائية التي ساعدت في توفير الطين المستخدم في صناعة الطوب اللبن، وهو العنصر الأساسي في البناء الآشوري، فقد تم استخدام اللبن في بناء اغلب المباني الدينية والدنيوية وذلك بسبب توفر المادة الأساسية، كما ذكرنا، وهي الطين، التي يوفرها هبة بلاد الرافدين، نهرا دجلة والفرات من ترسبات غرينية، ولقلة الحجارة في بلاد الرافدين وصعوبة الحصول عليها، ويرجح ان اول ظهور لاستخدام اللبن كان في الالف السادس ق.م، بالإضافة الى سهولة تصنيعه وسرعة تهيئته وقلة كلفته وسرعة وسهولة تشييد المباني به وكذلك وفرة ورخص ثمن المواد الداخلة في تصنيعه وهي الرمل والقش (التبن) او القصب المسحوق والماء، كما يتمتع اللبن بخاصية العزل الحراري التي تتلائم مع التطرف الكبير في درجات الحرارة السائدة في الصيف والشتاء وفي الليل والنهار في بلاد الرافدين (جرك، 1998، 163). وقد استعمل اللبن بشكل قرميد مجفف بالشمس، ولكن كان القرميد يتعرض للشوي أو الطلي بألوان متعددة بالنسبة لأعمال الزينة والقصور أو المعابد وكانت هذه الألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر والأزرق أو الفضي (ساغز، 2008، 267). وبالرغم من المميزات السابقة للبن، الا ان في هذه المادة بعض العيوب التي ظهرت في المباني المشيدة بها، أهمها، عدم مقاومته للرطوبة والمياه والاملاح وعمليات التعرية بفعل الرياح ومياه الامطار بالإضافة الى رتابة منظر الابنية المشيدة به، لذلك حاول المعمار تلافي تلك العيوب (جرك، 1998، 165).

كانت المنطقة تتعرض لفيضانات من النهرين، الأمر الذي دفع الآشوريين إلى تطوير تقنيات مبتكرة للحفاظ على استقرار المباني، وكان لموقع المنطقة دورًا كبيرًا في تحديد تقنيات البناء وأساليبه، فقد كان الآشوريون يستخدمون الطوب الطيني في بناء الأسوار والمعابد، وذلك بسبب وفرته واستخدامه في المنطقة.

ب. العوامل السياسية

كان فن العمارة الآشورية في المقام الأول يجسد السلطة والهيبة الملكية في العصر الآشوري، وقد كان الملك يُعتبر ممثلًا للإله على الأرض، فكانت جميع أعمال البناء، سواء كانت قصورًا أو معابد أو أسوارًا، تهدف إلى تعزيز هذه الصورة، فكان يُنظر إلى القصور الملكية على أنها أماكن ليس فقط للسكن، بل أيضًا كمراكز للشعائر الدينية والإدارة كما أن الملوك الآشوريين مثل سنحاريب وآشور بانيبال كانوا حريصين على بناء معابد تكريمية لإبراز قوتهم وعظمة حكمهم، وبالتالي كانت العمارة تستخدم كأداة للدعاية السياسية.

وكما هو معروف، فقد تميز الاشوريون بكثرة مخلفاتهم المعمارية وبنشاط ملوكهم الواضح في مجال العمارة لاسيما ملوك (السلالة السرجونية)،[1] وقد تم الكشف عن عدد من القصور الملكية في العواصم الآشورية الأربعة آشور وكلخو ونينوى ودور شروكين، وجميعها تدل على ضخامة القصور الملكية وروعتها ودقة تخطيطها وتزيينها وزخرفتها بمختلف العناصر الزخرفية كالمنحوتات الجدارية التي كانت تؤطر الاجزاء السفلي من الجدران الداخلية والخارجية والثيران المجنحة، التي كانت تزين المداخل والرسوم الجدارية، التي كانت تزيّن الاقسام العليا من الجدران الداخلية، فضلاً عن المسلات والتماثيل الاخرى التي زينت اجزاء معينة من القصور وكأنَّ الملوك الآشوريون ارادوا ان يظهروا

1- السلالة السرجونية: وصل الى العرش عام 721 ق.م رجل يدعى سرجون لم تذكر المصادر صلته بالملك السابق او الاسرة السابقة، ويبدو ان ظهوره في الحكم كان بسبب انقلابه على الملك شلمناصر الخامس، ويبدو أن اسمه سرجون، في الأكدية شروكين، ويعني (الملك الشرعي)، أو الصادق، إنما اتخذه بعد توليه الحكم ليؤكد شرعية حكمه، كما فعل سميّه القديم سرجون الأكدي قبل أكثر من 1500 عام ويعد سرجون الثاني، كما دعاه المؤرخون، إذ سبقه ملك يدعى أيضاً سرجون (الأول) إلى الجلوس على العرش الآشوري في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يعد مؤسساً لأسرة حاكمة جديدة في آشور دعاها المؤرخون نسبة إليه باسم السرجونيين، وهم سنحاريب، أسرحدون، وآشوربانيبال. ينظر: (هبو، 1996، 224-225).

مبلغ قوتهم وسعة سلطانهم فكان ذلك من خلال تشييدهم لهذه القصور الضخمة (سليمان، 1993، 340). فقد احتوى القسم الأسفل من جدار هذه القصور على نقوش وصور تمثل لعين الناظر الاعمال التي قام بها ملوك اشور دلالة على فخرهم بقوتهم وفرض سلطانهم على اعدائهم في ساحات المعارك، وكانت الصور البشرية في هذه النقوش على نمط واحد تجسم فيها البرود والجمود وفقدان الشعور (برستد، 1930، 119). وقد ساعدهم في ذلك توفّر المواد الاولية اللازمة، ولاسيما الحجر الكلسي بنوعيه الرخام والحلاّن ومن اروع الامثلة على القصور الملكية الآشورية، قصر آشور ناصربال الثاني في كلخو والمعروف بالقصر الشمالي الغربي والذي يمكن للزائر مشاهدة بقاياه حتى الوقت الحاضر، وقصر سرجون في دور شروكين (خرسباد) وقصر سنحاريب واسرحدون واشور بانيبال في مدينة نينوى (سليمان، 1993، 119).

ج. العوامل الدينية

تمثل فكرة (الإله) في المعتقدات الدّينية الآشورية، التي تواصلوا في خاصيتها مع أجدادهم السّومريين والأكديين والبابليين من أن الإله يمثل شيئاً خطيراً، بصدد قدرته غير المحدودة بالتّحكم بمظاهر الوجود، فبالرغم من أنه ينتمي لعوالم اللامرئيات، خصصت له أمكنة أرضية يجد فيها الرّاحة، ويتجلى بها بهيئة تمثال تقام له الشّعائر وتُؤدى له الطّقوس، التي تعد بمثابة تقدمة (خيرما) إلى قدرة عليا يُفترض أنها تُسهم في إغداق الخير عليهم، الأمر الذي فسح المجال لتطور فن الدّراما ونموه نمواً سريعاً (صاحب، 2020، 60).

وكانت المعابد تُشيد لتكون مساكن للآلهة، وتُصمم بحيث تعكس عظمة وقوة الآلهة في كل جوانبها، وكان يمارس فيها طقوساً معينة، أهمها تقدمة القرابين، وكان المعماريون الآشوريون يتبعون تقاليد صارمة في بناء المعابد، حيث يختارون أماكن مرتفعة لبناء المعابد، وذلك لربط الأرض بالسماء في تصوراتهم الدينية قد اختلطت الآراء فيما إذا كانت تمثل أول الأمر رغبة دينية واعية من أجل إبراز معالم المعبد المقدس وربطه بالسماء، أو أنها ارتفعت بسبب استخدام أنقاض المعبد القديم كأساس (مصطبة)، للمعبد الجديد ولكن يمكن الجزم بأن المصاطب

المرتفعة أصبحت تمثل إحدى معالم عمارة مجمع المعبد المقدس في بلاد الرافدين بشكل عام، ثم أضيفت إلى المصاطب منحدرات مناسبة تحيط بها، وفي أحيانا كثيرة كانت هذه المنحدرات متباينة أو متقطعة، كما أضيفت إليها سلالم عدة أصبحت في وقت لاحق تمثل جزءا أساسيا من ملحقات المعبد (خميس، 2018، 24). وكان لكل معبد خصائص معينة تتعلق بالإله الذي يُكرس له على سبيل المثال، معبد آشور في نينوى كان مركزًا لعبادة إله آشور، وكان يحتوي على ألواح حجرية ونقوش تصور مشاهد من المعارك والانتصارات التي حققها الملوك الآشوريون ضَمّت فضاءات المدنية الدّاخلية ثلاث زقورات، أكبرها تلك التي بناها الملك (شمشي-أدد) الأول، لعبادة الإله (آشور) ولم يُبقِ لنا الزّمن منها سوى قاعدتها مربعة الشّكل، التي يبلغ طول ضلعها ستين متراً، وذكرت الكتابات الآشورية بأن المدينة بوصفها مركزاً دينياً للأمة الآشورية، شهدت بناء ثمانية وثلاثين معبداً، أشهرها كُرّسَ لعبادة الإله (آشور) باعتباره القوة الحامية للمدينة، والإلهة (عشتار) بوصفها إلهة الحرب في اللاهوت الدّيني الآشوري، في حين أنزوى على بعد أربعمائة متر من سور المدينة، معبد صغير كرّس لإقامة احتفالات رأس السّنة الآشورية، وعُرف باسم معبد (أكيتو) (صاحب، 2020، 153).

د. العوامل الثقافية والاجتماعية

كانت الثقافة الآشورية تلعب دوراً مهماً في تشكيل فن العمارة، حيث كانت التصاميم المعمارية تحمل في طياتها رموزًا من حياتهم اليومية فمثلاً، كان الحفر على الجدران يشمل مشاهد حياتية مثل الصيد والحروب، أيضًا، وكانت تعد بمثابة توثيق لسلطة الملك وإنجازاته كما أن المجتمع الآشوري كان مهتمًا بتجميل المساحات العامة مثل الأسواق والمعابد لإبراز أبعاد جمالية وثقافية تتماشى مع المكانة الاجتماعية للطبقات العليا، فقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة، فأن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً من الحيوانات وكذلك قاموا بإنشاء حدائق للحيوانات في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى بحدائق الصَّيد.

وفي أحد النصوص يخبرنا آشور ناصر بال في القرن التاسع ما يلي:

"لقد اصطدت الحيوانات ومسكتها وهي أحياء، ولقد جَمَعْتُ في العاصمة كالح قطعاناً من الثيران الوحشية والفيلة والأسود والنعام وذكور وإناث القرود، والحمر الوحشية والغزلان والديبة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي." (ساغز، 2008، 375، 401)

فأن المظهر النفسي الذي اتبعه الآشوريين عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش النافرة لمشاهد الحروب فكان حربيا قبل كل شيء، وان النقوش العديدة التي تملأ جدران القصر تمثل في اغلبها مناظر الحرب والصيد، وأقدم نحت عثر عليه في أشور وجد في خرائب مدينة أشور وهو عبارة عن تماثيل صغيرة من الحجر.

ثانياً: أنواع المباني في العمارة الآشورية

أ - القصور الملكية

تعتبر القصور الملكية الاشورية واحدة من روائع المعالم المعمارية، حيث صممت هذه القصور باستخدام أسلوب هندسي يتميز بالضخامة والتفاصيل الدقيقة، فكان القصر الملكي يحتوي على قاعات كبيرة تستخدم للاحتفالات والطقوس الدينية، فضلاً عن غرف خاصة بالملوك وأسرهم.

القصور الأشورية كلها متشابهة إن لم يكن في تفصيلاتها فعلى الاقل في التخطيط العام لترتيبها ولعل أشهر قصر نعرفه هو قصر دور شاروكين الذي بنى في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن قبل الميلاد ولقد بنيت مدينة دور شاروكين والقصر في نفس الوقت ولكنهما لم يعمر طويلا ولم يطرأ على المباني الرئيسية أي تعديل وقد اختار الملك الاشوري سرجون مكانا لهما قرية على مبعدة نحو 15 كيلومترا الى شمال شرق نينوى وقد أحاط المدينة بسور تحصين مستطيل وبنى مسكنه فوق مسطح في مستوى الحوائط على جانبي الجدار الشمالي الشرقي حيث قامت في العهد الآشوري المدن الضخمة التي انتشرت فيها المعابد والقصور ومنها مدينتي (آشور ونينوى) وقد اهتم الملك الآشوري (سنحاريب) بتعمير مدينة (نينوى) عاصمة الآشوريين وصمم على جعلها أجمل من مدينة بابل التي دمرها، وقد بنى بها المعابد والقصور ودور الحكومة وأحاطها بالأسوار (ديلابورت د.ت، 388، 400). وفي مدينة نمرود (كالح) يُعدّ القصر الشّمالي الغربي للمدينة، من أهم الوحدات المعمارية في المدينة، الذي اكتسب تسميته من موقعه الجغرافي في خارطة مدينة نمرود، الذي كتُشف جزء منه في اكتشافات البعثة البريطانية برئاسة (ليارد)، واستكملت هيئته المعمارية على يد (ملوان) بعد ذلك بزمن طويل، ويُظهر المخطط المعماري للقصر، أن الطّبيعة لم تعامل مركز إدارة الإمبراطورية الآشورية بنحو شفاف، إذ جَرفت سيول الأمطار عبرَ الزمن أجزاءً كبيرة منه ولا سيما مجموعة السّاحات والقاعات والغرف في الجهة الشمالية منه ومع ذلك فإن أجزاءه المتبقية تعلن على أنه يمثل النظام المعماري الأنموذجي للقصر الأشوري في تاريخه الحديث، بوصفه رمزاً للمفهوم الآشوري.

اما الملك الاشوري (آشورناصربال) الثّاني فأنه بنى قصره المشهور في السّنة السّادسة من حكمه، بمساعدة الأراميين الذين جَنّدهم لذلك الغرض، ثم انضم إليهم في حفل ديني احتفاءً بإكماله، قبل أن يعيدهم إلى بلادهم ويظهر المخطط الهندسي للقصر ذو (البنية) الحجرية، إلى أنه يُعد الصّورة الناضجة لنظام القصر الآشوري (صاحب، 2020، 156).

ب – المعابد

اتصلت المعابد في العراق القديم بشؤون الناس الدينية وكذلك الدنيوية وكان المعبد في القسم الشمالي من العراق يمثل دائما مركز القرية أو المدينة ومن حوله تبنى بقية الابنية الأخرى سواء كانت رسمية أو مدنية (سليم، 2011، 381). بهذا الصّدد عقد المعماريون الآشوريون تواصلاً متيناً مع الأنظمة المعمارية لمعابد العصر الآشوري الوسيط إذ حافظت معابد العاصمة السّرجونية على أشكالها الهندسية المنتظمة واضحة التّفصيلات، وتكون مستطيلة الشّكل في معظم الأحيان، ومحاطة بأسوار عازلة عن العوالم الدّنيوية، وتتجه أضلاعها نحو الجهات الأربع، ولها منظومة متناسقة الأبعاد من الطّلعات والدّخلات وظيفتها إسناد الجدران وتقويتها من النّاحية المعمارية، وتجميل سطوحها الخارجية بومضات من الظّل والضّوء. وتتألف نواة المعبد الآشوري من ساحة مكشوفة محاطة من ثلاثة جوانب بصف من الغرف المسقفة، كرّست لسكن الكهنة وخزن نذور المعبد وهداياه، أما الضّلع الرّابع للساحة المقابل لمدخله من الجهة البعيدة، فقد شُغِلَ بغرفتين كبيرتين مستطيلتي الشكل. حَصرَ الملك (سرجون) معابد الآلهة الآشورية الرّئيسة المتبعة، في الزاوية الجنوبية الشّرقية من عاصمته الجميلة، بعد أن كانت تنتشر بنحو عشوائي وكثيف في أماكن شتى في المدن البابلية والعواصم الأشورية الأخرى، ولعل فكرة (سَجن) المعابد وكهنتها على تلك المساحة الجغرافية الصّغيرة، يؤكد هيمنة سلطة الملك بوصفه الكاهن الأعلى للإله آشور، على سطوة الفكر الكهنوتي وتقليص نفوذه في خاصية القرارات التي تتخذها الدولة. وقد كرَّس الملك الذي جمع في شخصيتهِ الصّفات الدّينية والحياتية بمنفذيها التّشريعي والتنفيذي سبعة معابد لعبادة أهم الآلهة الفاعلة في الفكر الدّيني الآشوري، إذ ضم حي المعابد الصّغير بالعاصمة معابد للإله (نابو) ابن مردوخ إله الكتابة والمعرفة، والإله (سن) الإله القمر، والإله (شمش) إله الشمس المسؤول عن فكرة

الحق والعدالة، و(أدد) إله الزّوابع والامطار، و(أيا) إله المياه، و(ننورتا) إله الحرب، و(ننكال) إلهة الخصب في ربوع البلاد (صاحب، 2020، 166-167). مما تقدم نجد ان المعابد كانت تعتبر أماكن لعبادة الآلهة، ويُلاحظ أن تصاميمها كانت تتسم والزخرفة المتقنة كما كانت الجدران مغطاة بنقوش تمثل الآلهة والملوك في مواقف مختلفة، ومعبد الإله آشور في نينوى هو أحد المعابد التي تعكس روعة التصميم الآشوري، حيث كانت جدرانه مزينة بالمنحوتات التي تصور الآلهة والحروب الملاحم البطولية التي حققها الملوك الآشوريون كانت هذه المعابد، بفضل تفاصيلها الدقيقة، أداة تعليمية وروحية في ذات الوقت.

ج. الأسوار والتحصينات

كانت الأسوار والتحصينات من العناصر الاساسية في العمارة الآشورية، خصوصا في المدن الكبيرة مثل نينوى فكانت الأسوار تُبنى باستخدام الطوب اللبن المدعوم بالحجر الجيري، وكان يتم تزيينها بأبراج ضخمة تهدف إلى توفير الحماية من الهجمات الخارجية كما كانت الأسوار تحمل دلالة رمزية تعكس قوة الآشوريين وقدرتهم على الحفاظ على مدنهم ضد أي تهديد. ومن أشهر هذه التحصينات، حصن الملك شلمناصر الثالث ابن آشور ناصر بال الثاني وهو مشيد في الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة نمرود مقابل الحي الملكي وكان الحصن واسعا ويشمل عدة ساحات وقاعات ومداخل ينتقل منها المرء عبر بعضها البعض حتى يصل الى قاعة العرش التي تمتاز بدكة العرش ذات الدرجتين والمزدانة حافاتها وواجهتها الامامية بصورة منحوتة للملك شلمناصر يصافح الملك البابلي مردوخ تحت مظلة ملكية يحيط بها رجال الحاشية ثم تتوالى على الجانبين مواكب حاملي الهدايا والجند والقادة وهم يتوجهون الى المقدمة (العراقيين 1985، 170-171). اما الملك الاشوري سرجون فقد أحاط مدينته دور شروكين بسور تحصين مستطيل وبنى مسكنه فوق مسطح في مستوى الحوائط على جانبي الجدار الشمالي الشرقي حيث يوجد بروز تحيط به أبراج تشبه ابراج السور وبروزها الى ناحية الريف (ديلابورت د.ت، 388-389).

د. الأسواق والمرافق العامة

رغم تركيز العمارة الآشورية على القصور والمعابد، إلا أن الأسواق والمرافق العامة كانت جزءًا من التخطيط الحضري للمدن الآشورية، فقد كانت الأسواق تحتوي على ساحات تجارية وصناعية توفر سلعًا متنوعة للسكان.

إذ كشفت التنقيبات الأثرية عن ساحات واسعة داخل المدن الآشورية كانت هذه الساحات الواسعة والمحيطة ببوابات المدن تستخدم هي الاخرى لتجمع الباعة والتجار وعرض بضائعهم، كما هي العادة في معظم المدن الشرقية والغربية وحتى الآن، وقد اشارت بعض النصوص المسمارية الى ذلك حيث ذكرت ان بعض الاتفاقات كانت تبرم عند مداخل المدن، كما ان اسم احدى بوابات سور نينوى يعني (بوابة التسلم عند الشراء)، كما انه ليس من الضروري ان تكون الاسواق في ساحات مكشوفة بل ربما كانت الاسواق المفتوحة هي اسواق موسمية او وقتية تعقد في ايام معينة من الاسبوع او الشهر او السنة، اما الاسواق الدائمية فربما كانت تتألف من عدد من المحلاّت التجارية، او الدكاكين او العنابر التي كانت تشيد داخل المناطق السكنية ولا تختلف عن ابنية البيوت في شيء لذلك يصعب على المنقب تمييزها والتعرّف عليها، وان ما يؤكد وجود مثل هذه الدكاكين هو العثور على العديد من عقود الايجار الخاصة بهذا النوع من العقارات (سليمان، 1993، 245).

ثالثاً: المواد المستخدمة في العمارة الآشورية

أ - الطوب اللبن

يعتبر اللبن المادة الأساسية في بناء الآشوريين للعديد من المباني، بما في ذلك الأسوار والمعابد وكان يتم تصنيعه محلياً من الطبيعة، وبعد ذلك يتم تعريضه للشمس حتى يجف، وعلى الرغم من كونه مادة خفيفة وغير دائمة، إلا أن الآشوريين كانوا يطوّعون الطوب (اللبن) بشكل أكثر ابداع لتحقيق بناء مستدام في مدنهم.

وقد كان اللبن يستعمل في الجدران قبل أن يتم تجفيفه حتى ترتبط طبقاته المتتالية بعضها ببعض دون استعمال المونة، أما بالنسبة للقباب فإن الطوب التام التجفيف كان يستعمل وكانت الفجوات تملا بالطين (ديلابورت د.ت، 394).

ب. الاحجار

استخدم الآشوريون الاحجار في تزيين الأسطح الداخلية والخارجية للمباني، خاصة في المعابد والقصور، فالأشوريون في شمال منطقة ما بين النهرين قد حالفهم الحظ في موقعهم فقد كانت الأحجار بمتناول أيديهم، وكانت أمامهم التلال الحجرية وهذه تحتوي الحجارة الكلسية أو الرخام التي كانت على مرأى النظر بالنسبة لكل من عواصمهم المتعاقبة ولقد حصلوا على الحجارة عن طريق المقالع المفتوحة، إذ تركت إحدى هذه المقالع في عملياتها ندوباً واضحة في وجوه الصخور، مادة خام لا تصلح لبناء المعابد والقصور فحسب، بل أيضاً لبناء أبنية أخرى ايضاً، وهكذا كانت الأحجار تقلع بشكل قطع كبيرة بمساحة خمسة أقدام طولاً وبعرض قدمين ونصف وذلك في أوائل القرن التاسع ق.م، وقد استعملت هذه الأحجار في بناء سور لأحد المرافئ، وهناك قطع كبيرة يصل وزن الواحدة منها إلى عشرين طناً كانت تنحت لتمثل سوراً أو سداً هائلا، وفي أثناء حكم سنحاريب (704-481) ق.م أرسلت عدة فرق منها المساحين للتفتيش عن مصادر جديدة لأندر وأجمل أنواع الحجارة (ساغز، 2008، 266)

ج. الألوان والطلاء

يعتبر استخدام الألوان والطلاء ركناً اساسياً في الزخرفة المعمارية الآشورية التي هي جزء من عمارة بلاد الرافدين، فكان يتم استخدام الألوان الطبيعية لتغطية الأسطح الداخلية للمباني، وتزيين الجدران والأعمدة بأسلوب يهدف إلى اظهار الجمالية والتفرد المعماري، فمن الألوان الشائعة كان (الأسود، الأحمر، البرتقالي، الارجواني، التبني) (الاغا، 2004، 88).

الاستنتاجات

- بقيت العمارة الآشورية واحدة من أبرز الإنجازات الحضارية في تاريخ الشرق الادنى القديم، اذ جسدت في تفاصيلها السلطة الملكية والقوة العسكرية، فضلاً عن ارتباطها العميق بالروح الدينية للمجتمع الآشوري، من خلال المعابد الضخمة والقصور الملكية، الأسوار التحصينية.
- استخدم الاشوريون المواد الطبيعية، واستطاعوا أن يتركوا تأثيرًا كبيرًا على الحضارات المجاورة لهم وبذلك فأن الفن المعماري لا يعكس مجرد قدرة على البناء، بل هو أيضًا شاهد على مسيرة طويلة من الثقافة والمعتقدات المرتبطة بالأرض والشعب.
- العمارة الاشورية تعكس تطوراً حضارياً متقدم في العالم القديم، اذ لم تقتصر انجازاتهم على الحروب والإدارة بل شملت ايضاً الجانب الانشائي والفني.
- استخدم الاشوريون المواد المحلية من بيئتهم المحيطة، مثل اللبن والطوب والحجر، وهذا ان دل على شيء فيدل على براعتهم في التكيف مع بيئتهم.
- امتازت العمارة الاشورية بالتنوع حيث المعابد والقصور والاسوار، وهذا بدوره يعكس التعدد الوظيفي لمثل هذه المنشئات العمرانية.
- كانت الزخارف والنقوش التي رسمها الفنانون الاشوريون على الجدران والتي تمثل مشاهد الطقوس الدينية والمعارك، هي وسيلة لنقل الأفكار تعبيراً عن الهيبة والسلطة.
- ارتبطت العمارة الاشورية بالمعتقدات السياسية والدينية، حيث بُنيت المعابد والقصور وفق تصورات لتمجيد الاله والملك، وتظهر فيها قوة الدولة الاشورية.
- كان للبعد العسكري اثراً في التفكير المعماري الاشوري، حيث اظهروا اهتمامهم بالبنية الدفاعية لمدنهم مثل الاسوار والابراج والبوابات.
- استمرت العمارة الاشورية في التأثير لعدة قرون بعد سقوط الإمبراطورية الاشورية، وهذا بدوره يدل على عمق التأثير الحضاري وقوة الفن الاشوري.
- في المجمل، فأن هذه العمارة تعكس رؤية حضارية منسجمة تمزج بين القوة والجمال، وتعتبر مرآة تعكس روح العصر الاشوري.

المصادر

- احمد ارحيم هبو،(1996)، تاريخ الشرق القديم بلاد ما بين النهرين (العراق)، دار الحكمة اليمانية.
- احمد امين سليم،(2011)، حضارة العراق القديم، دار المعرفة الجامعية.
- ادموند بيكن،(2012) تصميم المدن، ترجمة طه الدوري، دار كلمة.
- اوسام بحر جرك،(1998)، "الزقورة ظاهرة حضارية مميزة في العراق القديم"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد/ كلية الاداب.
- جيمس هنري برستد،(1930) العصور القديمة، بيروت: المطبعة الامريكانية.
- خالد السلطاني،(2013)، فعل العمارة ونصها قراءة في عمارة الحداثة وما بعدها، بغداد: دار المدى.
- زهير صاحب،(2020)، تاريخ الفن في بلاد الرافدين الفنون الاشورية والبابلية الجديدة، ج3، بغداد: دار عدنان.
- زينب عبد التواب خميس،(2018)، "ما بين الكهف والمعبد في بلاد الرافدين خلال عصور ما قبل التاريخ"، مجلة ليكسوس.
- عامر سليمان،(1993)، العراق في التاريخ القديم موجز التاريخ الحضاري، ج2، الموصل: دار الكتب للطباعة والنشر.
- عبد الوهاب حميد رشيد،(2004)، حضارة وادي الرافدين ميزوبوتاميا، بغداد: دار المدى.
- ل. ديلابورت(د.ت)، بلاد ما بين النهرين الحضارتان البابلية والاشورية، ترجمة محرم كمال، القاهرة: مكتبة الاداب.
- نخبة من الباحثين العراقيين، (1985)، حضارة العراق، ج3، بغداد.
- هاري ساغز، (2008)، عظمة آشور، ترجمة خالد اسعد، دمشق: دار رسلان.
- سناء حسون الاغا،(2004)، "الطين في حضارة بلاد الرافدين"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل/ كلية الاداب.